الخداع

فى لقـاء بين الرئيس المـصرى محمد أنـور السادات والرئيـس السورى حافظ الأسد فى مدينة دمشق فى يوم ١٢ يونيو عام ١٩٧٣ (٧) تم وضع أسس الاتفاق على التنسيق بين الجيشين وكانت غرفة العمليات المشتركة قد بدأت فى شهر فبراير مـن نفس العام (١٩٧٣) فى القيـام بوضع الخطوط الأولى للخطة (٧).

فى الساعة الثانيـة بعد ظهر يوم ٢١ أغسطس عام ١٩٧٣ دخلت ميناء الاسكندرية بـاخرة ركاب على متنهـا ستة رجال كان يتوقف عـلى قرارهم مصيـر الحرب والسلام فـى منطقـة الشرق الأوسط هـم اللواء مصـطفى طلاس وزير الـدفاع السورى والـلواء يوسف شـكور رئيس أركـان حرب القوات المسلحة السورية واللواء ناجـى جميل قائد القوات الجوية السورية واللـواء حكمت الـشهابـى مدير المخابـرات الحربيـة واللواء عبـد الرزاق الدرديرى رئيس هيئة العمليات والعمـيد فضل حسين قائد القوات البحرية السورية وكان فى استقبال هؤلاء الرجال الفريق سعد الشاذلى رئيس أركان حرب القوات المصرية الـذى صحبهم فى ثيابهم المدنيـة إلى نادى الضباط بالاسكندرية للراحـة قليلا قبل عقد اجتماع فى الساعـة السادسة من مساء اليـوم فى مبـنى قيـادة القوات الـبحـرية المصـرية فى رأس الـتين بمدينـة الاسكندرية (٤).

كان الوفد المصرى فى الاجتماع يتكـون من الفريق أول أحمداسماعيل على وزير الحربيـة والقائد العـام للقوات المـسلحة المصريـة والـفريـق

سعد الديـن الشاذلى رئيس هـيئة الأركان واللواء مـحمد على فهـمى قائد الدفاع الجوى واللواء حسنى مبارك قائد القوات الجوية واللواء فؤاد ذكرى قائد القوات البحرية واللواء عبدالغنى الجمسى رئيس هيئة العمليات واللواء فؤاد نـصار مدير المخـابرات الحربيـة وهم الذيـن يشكلـون مع نظرائـهم السوريين المجلس الأعلى للقوات المصريـة السورية المشتركة، وقام بأعمال السكرتارية لهذا المجلس اللواء بهى الدين نوفل (٤).

كان هدف الاجتماع هو تحديد ميـعاد الحرب وكان القرار الذى خرج به المجلس هو أن القوات المـصرية والسورية مستعدة وجاهزة لـلحرب وفيما يتعلق بتاريـخ الحرب فقد اقترح المجلس توقيتين أحدهـما خلال الفترة من ٧ إلى ١١ سبتمبر والثانى فى الفترة من ٥ إلى ١١ أكتوبر مع إرفاق طلب إلى القيادة السيـاسية ليكون القرار الخاص بتوقيت الحـرب قبل بدء القتال بخمسة عشر يوما (٤).

تم فى اجتـماع الاسكنـدرية تنسيـق الخطط المصـرية السوريـة الخاصة بالسرية والأمن والخـداع التعبوى والاستراتيجى والسـياسى ومن بين هذه الإجراءات بدأ أعضاء الوفد السورى بالعـودة إلى بلادهم بأسلوب مختلف فمنهم من عاد بطريق الجو عن طريـق السعودية ومنهم من عاد عن طريق البحر ومنهم من بقى عدة أيام أخرى (٤).

فى إطار خـطة الخداع والسريـة توجهت الاهتمـامات المحلية المـصرية والسورية نحو مـوضوعات بعيدة عن جو الحرب والإعداد لـها فقد أبرزت وسائل الإعلام المخـتلفة قضايـا فرعية عن «المتـغيرات الدولية وأثـرها فى

الفكر والعمل العربى» التى عقدت جلسات فى مجلس الشعب المصرى لمناقشتها وأديرت ندوات فى النقابات المهنية والمؤتمرات السياسية لمناقشة هذا الموضوع.

وأفردت الصحف صفحاتها لشكاوي المواطنين من المواصلات والتموين وأبرزت انهيار الخدمة الصحية وفوضى المستشفيات واستحوذت قضايا التعليم والقبول بالمدارس على جانب كبير من اهتمامات وسائل الإعلام ومن بين حشايا المشكلات طفت على السطح مشكلة نتجت عن قرار لوزارة الإسكان يلزم أصحاب المبانى بانشاء المخابىء كشرط لصدور قرار الموافقة على الترخيص بالبناء والحصول على مواد التموين اللازمة للبناء، فى نفس هذه الفترة لقى قرار وزارة الداخلية بتخفيض الإضاءة بنسبة خمسةو عشرين فى المائة سخرية بالغة من جموع الشعب المصرى (٩).

كانت واحدة من أهم القضايا التى شغلت وسائل الاعلام المتعددة وامتد أثرها إلى القنوات الديبلوماسية لتنشغل أيضا بنفس القضية، هى قضية الوحدة الاندماجية التى كانت تناقش على كافة المستويات فى مصر وليبيا لتحقيق الوحدة الاندماجية بينهما.

فى داخل هذا الاطار المخطط من أنباء واهتمامات اندست أخبار كان بعضها حقيقيا وكان البعض الآخر يستهدف تضليل العدو فقد تقرر أن تخصص نسبة ثلاثين فى المائة من المسافرين لأداء فريضة الحج فى هذا العام لأفراد القوات المسلحة المصرية على أن تجرى القرعة للمتقدمين فى يوم ١١ أكتوبر، كما وافق وزير الحربية المصري على فتح الباب أمام

ضباط وجنود القوات المسلحة الراغبين فى تأدية العمرة فى الأراضى المقدسة خلال شهر رمضان المبارك، وجرى الاعلان عن الزيارة المرتقبة التى سيقوم بها وزير الدفاع الرومانى الجنرال أيون أيونيفا على رأس وفد عسكرى إلى مصر بدعوة من وزير الحربية المصرى فى يوم الإثنين الثانى من أكتوبر لإجراء محادثات تستهدف زيادة التعاون العسكرى بين البلدين(٩).

فى نفس هذا التوقيت كان مخططا أن يكون عدد من الوزراء فى زيارات مختلفة لدول مختلفة فى توقيت يتواكب مع بداية شهر أكتوبر.

اعتبارا من يوم السادس من سبتمبر ١٩٧٣ كانت اللمسات الأخيرة قد بدأ الإعداد لها ففى هذا اليوم صدرت توجيهات القائد العام للقوات المسلحة الاتحادية بأن تكون القوات المسلحة فى كل من مصر وسوريا فى تمام الاستعداد لشن العملية الهجومية (بدر) في خلال خمسة أيام اعتبارا من أول ضوء يوم أول اكتوبر عام ١٩٧٣، وتولى اللواء بهى الدين نوفل رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة الاتحادية تسليم التوجيهات باليد إلى الفريق سعد الدين الشاذلى رئيس هيئة أركان القرات المسلحة المصرية فى يوم ٧ سبتمبر، ثم سافر اللواء نوفل إلى سوريا لتسليم التوجيهات الى اللواء يوسف شكور رئيس الأركان السورى فى دمشق يوم ٨ سبتمبر.

بعد ذلك التاريخ بخمسة أيام وفى الثالث عشر من شهر سبتمبر (أيلول) نشبت معركة جوية بين الطائرات السورية من طراز ميج وبين الطائرات الإسرائيلية من طرازى فانتوم وميراج غرب طرطوس فوق البحر

الأبيض المتوسط حيث ظهرت المعركة وكأنها اشتباك جوى بين الطائرات السورية وبين الطائرات الإسرائيلية التى اخترقت المجال الجوى السورى، وخلال برهة وجيزة من الزمن أسفر الأمر عن اقتياد الطائرات السورية إلى كمين محكم نصبته الطائرات الإسرائيلية فكانت المعركة وكانت نتيجتها سقوط ثلاث عشرة طائرة سورية مقابل طائرة إسرائيلية واحدة (٥).

أسهم هذا الحادث فى خداع المخابرات الاسرائيلية التى نسبت التعزيزات السورية والحشود التى تقوم بها سوريا على امتداد خط وقف إطلاق النار إلى التوتر الذى ساد الجبهة الشمالية وكان التقييم الذى خرجت به المخابرات الإسرائيلية عن هذه الحشود بأنها نوع من خشية سوريا من ضربة إسرائيلية مضادة عندما تقوم سوريا بالانتقام لسقوط طائراتها بضربة محدودة.

برغم أن عددا قليلا جدا من التصريحات العدائية قد انطلقت من سوريا ضد إسرائيل فى هذا الوقت فقد تم تفسيرها على أساس أنها تعد جزءا من التوتر العام الذى يسود المنطقة فى أعقاب حادث إسقاط الطائرات السورية فى البحر بواسطة سلاح الجو الاسرائيلى.

باقتراب يوم السادس من أكتوبر تصاعدت اجراءات الخداع ففى يوم السابع والعشرين من شهر سبتمبر دعا وزير الحربية المصرى رفاقه من الوزراء المصريين لزيارة القيادة العامة للقوات المسلحة ليشرح لهم تنظيم القيادة وأسلوب عملها، وفى صباح اليوم التالى رافقه الفريق سعد الدين الشاذلى وعدد من ضباط القوات المسلحة لزيارة قبر الرئيس الراحل جمال

عبدالناصر ثم حضروا حفل تأبين للرئيس عبدالناصر فى القيادة العامة حضره عدة مئات من الضباط من مختلف فروع القوات المسلحة المصرية، وفى المساء حضر الوزير ورئيس الاركان الحفل الذي أقامه الاتحاد الاشتراكى بمناسبة ذكرى رحيل عبدالناصر(٤) وكان خطاب الرئيس السادات الذى ألقى فى هذه المناسبة خاليا من أى تهديدات لإسرائيل.

كانت المخابرات الأمريكية تضع عيونها على كل الذى يجرى فى الشرق الأوسط وتتبادل مع الموساد الإسرائيلى المعلومات التى تمس الحرب والسلام فى المنطقة. وفى يوم ٢٧ سبتمبر أطلقت الولايات المتحدة الأمريكية من قاعدة فاندبرج بولاية كاليفورنيا قمرا صناعيا من طراز ساموس فى مدار يقع غرب آسيا لنقل المعلومات عما يجرى فى الجانب العربى وتولت تزويد المخابرات الاسرائيلية بجميع الصور التى التقطها القمر بكل ماتحويه من دقائق وتفاصيل.

شهد يوم الثامن والعشرين من سبتمبر عملا من الأعمال التى كان لها أثرها الواضح فى بلبلة تفكير القيادة الإسرائيلية وأجهزة مخابراتها فقد زاد من يقين أجهزة المخابرات بأن الحشود السورية هى تحسب لضربة انتقامية من إسرائيل فقد «كان عمل آخر من أعمال الخداع ربما كان أنجحها جميعا، ولم يوافق عليه الرئيس السادات إلا على مضض» يتضمن استخدام قوات الصاعقة السورية الفدائية، وتم تنفيذ الخطة يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣ حيث قام مسلحان من الصاعقة السورية باختطاف قطار من النمسا واحتجزا عددا من الرهائن وطالبا بإغلاق معسكر قلعة شناو بالقرب من فيينا الذى كان

يستخدم كمعسكر ترانزيت لليهود الذين يغادرون الاتحاد السوفيتى» (١) مما دعا رئيسة وزراء إسرائيل لـلسفر إلى النمسا لمقابلة المسـتشار كرايسكى فى الثانى من أكتوبر.

استمـرارا فى خطة الخداع كـان مقررا فى السابـع من أكتوبر أن تـطير طائرة كوميت تابعة لسلاح الجو الملكى البريطانى من قبرص لاختبار ممرات الهبوط فى أبو سمـبل والأقصر استعدادا للزيارة الوشيكة الـتي ستقوم بها الأميرة مرجريت لمصر (١)، وكانت مجموعات من المخابرات المصرية تزور باريس للبحث عن قـصر يمكن تأمينه لزيارة شخصية سيـاسية مصرية هامة عرف أنها الرئيس السادات بنفسه الذى سيحضر فى رحلة استجمام وعلاج فى اوائل أكتوبر.

كانت سوريا تـعد محافظة دير الزور للزيـارة التاريخية المرتقبـة للرئيس السورى حافظ الأسد للـمحافظة فى النصف الأول من شهر اكـتوبر بينما كانت الـقوات الجوية المصريـة قد سربت خبـرا عن زيارة يقوم بهـا اللواء حسنى مبارك قائد القوات الجوية إالى لـيبيا يوم الخامس من أكتوبر وكانت قوات الدفاع الجوي قد سربت تقريرا عن عـدم صلاحية الكثير من معدات الصواريخ بعد سحب الخبراء الروس.

فى أول أكتوبر اجتمع المجلس الأعلى للـقوات المسلحة المصرية برئاسة الرئيـس محـمد انور الـسادات وفـى يوم ٣ أكـتوبـر سافر الـوزير أحـمد اسماعـيل إلى سوريا للاتـفاق على الموعد الـنهائى لبـداية العمليـات على الجبهتين، وفى نـفس اليوم الأول من أكتوبر جري إخطـار قائدى الجيشين

الثانى والثالث الميدانيين فى مصر أن تمام الاستعداد لتنفيذ الخطة (بدر) سوف يكون يوم السادس من أكتوبر الموافق العاشر من رمضان، وفرض عليهما أمر بأن يجرى تبليغ قادة الفرق يوم ٣ أكتوبر وقادة الألوية يوم ٤ أكتوبر وقادة الكتائب والسرايا يوم ٥ أكتوبر وقادة الفصائل وضباط الصف والجنود قبل بداية الهجوم بست ساعات فقط (٤)، إلا أن بعض الوحدات تم فيها إبلاغ قادة الألوية فى الساعة الثامنة من صباح يوم السادس من أكتوبر، ومع بعض الاستثناءات فإن الرجال الذين كانوا فى سرايا المشاه فى المقدمة لم يعرفوا بأنهم سيقومون بالهجوم حتى الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرا، أما طيارو سلاح الطيران فتم إبلاغهم عند الظهر(١).

فى الثالث من أكتوبر تم تسريح نحو ألفين من جنود الاحتياط(١) فى الجيش المصرى، وكانت هناك ضرورة استمرار الحياة العادية داخل المواقع المصرية وقد خصصت مجموعات من الرجال كل واجبها التمويه فى كل وحدة من وحدات الجيش المصرى على الجبهة، واتجهت مجموعات من الرجال للسباحة بلباس البحر فى القناة وكان مقررا استمرار أعمال الشركات المدنية بمهندسيها وعمالها حتى الساعة الواحدة والنصف من ظهر يوم السادس من أكتوبر فى منطقة أعمالهم بجبهة قناة السويس (٨).

كان الاتحاد السوفيتى الذي أخطر بموعد الحرب قد أطلق قمرا صناعيا من طراز كوزموس ٦٠٣ ووجهته التحليق فوق منطقة الشرق الأوسط، وفى اليوم التالى خرجت جميع وحدات الأسطول السوفيتى التى كانت راسية فى مينائى الاسكندرية وبورسعيد إلى عرض البحر المتوسط، وفى

صباح الجمعة الخامس من أكتوبر هبطت في مطارى القاهرة ودمشق طائرات نقل سوفيتية من طراز انتينوف ٢٢ لنقل عائلات الخبراء والمستشارين ورعايا الاتحاد السوفيتى من مصر وسوريا بعد أن حزموا أمتعتهم (٤).

كانت الحلقة الأخيرة من سلسلة الاجراءات الخداعية ـ التى تم الإعلان عنها أو معرفتها ـ هى الإعلان المسبق عن قيام مصر بإجراء المشروع الاستراتيجى السنوي فى المدة بين أول أكتوبر وحتى السابع من هذا الشهر(٤)، وتحت هذا الستار كان يتم استدعاء الاحتياطى والانتقال من مراكز القيادة العادية إلى مراكز القيادة الميدانية وكان الاستدعاء رقم ٢٣ هو الاستدعاء للحرب (٤).

obeikandl.com